

من سينتصر في هذه الحرب؟

2023/11/18

بعد مرور ستة أسابيع على عملية طوفان الأقصى وما تلاها من اجتياح إسرائيلي لقطاع غزة، وما صاحب ذلك من قتل وتهجير وتدمير للبشر والحجر، يظل السؤال الذي طرحه الكثيرون منذ اليوم الأول للحرب: من سينتصر في هذه الحرب؟

ربما تكمن الإجابة على هذا السؤال في تعريف النصر.

بالنسبة لإسرائيل، فقد وضعت لنفسها أهدافاً تتمثل في القضاء على حركة حماس وتصفيتهما وإطلاق سراح الأسرى الموجودين في قبضة المقاومة الفلسطينية. هناك أكثر من نسخة لهذه الأهداف المعلنة، ولكنها تصب في نفس المعنى. ولتحقيق تلك الأهداف، أعلنت إسرائيل حالة الحرب، واستدعت مئات الآلاف من جنود الاحتياط، وقامت بعمليات برية وجوية وبحرية واسعة، وأمغنت في قصف وتدمير الأحياء السكنية وقتل الآلاف من الفلسطينيين حوالي نصفهم من الأطفال. فإذا تمكنت إسرائيل من تحقيق تلك الأهداف، يمكنها الادعاء أنها انتصرت في هذه الحرب واستعادت قوة الردع التي تآكلت نتيجة عملية طوفان الأقصى، وأعدت إلى مواطنيها الشعور بالأمان والطمأنينة الذي افتقدوه بعد تلك العملية. والسؤال المطروح هو: هل يمكن لإسرائيل القضاء على حماس وتصفيتهما؟ وهل إذا تم القضاء على قيادة حماس (بفرض أن ذلك ممكناً) تكون إسرائيل قد قضت على حماس؟ هل حماس هي مجموعة من الأشخاص "الشريرين" كما تصفهم إسرائيل وأمريكا وأوروبا؟ أم أن حماس فكر وعقيدة، وإذا استشهد جيل من قادتها فسوف يظهر جيل أكثر قوة وتطرفاً؟ وحتى إذا قضت إسرائيل على حماس، فماذا عن بقية الفصائل مثل الجهاد الإسلامي وفتح والجبهة الشعبية وغيرها، التي قد تقوم بما قامت به حماس؟

ولكن، ما هو النصر بالنسبة لحماس؟

لا شك إن عدم تحقيق إسرائيل لأهدافها يعتبر بحد ذاته انتصاراً لحماس والمقاومة. فصمود المقاومة أمام آلة الحرب الإسرائيلية، وإيقاع خسائر كبيرة بها (على المستوى العسكري والاقتصادي والإعلامي الدولي) مما يضطرها للانسحاب دون تحقيق أهدافها سوف يعتبر نجاحاً ونصراً لحركة المقاومة، لأنها ستعود أقوى مما كانت عليه سابقاً، وهو أمر سيكون من الصعب على إسرائيل وأمريكا قبوله. وقد يطيل ذلك أمد الحرب على غزة ويمدّد بقاء القوات الإسرائيلية فيها أو على أجزاء منها ويزيد من حجم الدمار الذي تتعرض له غزة، ولكن من غير المتوقع أن يغير ذلك من نتيجة الحرب.

ولكن، ربما يكون السؤال الأهم: ما هو النصر بالنسبة للفلسطينيين؟

الذي يتابع تراجع القضية الفلسطينية في السنوات الأخيرة في المحافل الدولية، وحالات الهرولة والتطبيع مع إسرائيل، وسلوك إسرائيل الواضح في تسريع بناء المستوطنات واعتقال الآلاف من الشباب الفلسطيني وتدنيس الأماكن المقدسة وخصوصاً المسجد الأقصى، يمكنه أن يلاحظ كيف قفزت القضية الآن إلى قمة الأحداث، وفرضت نفسها على الأجندة الدولية، وأظهرت للعالم بوضوح أنه لا يمكن القفز على القضية الفلسطينية مهما حاولت إسرائيل وأمريكا وأوروبا، وربما بعض الدول العربية أيضاً. وبالتالي، ليس من قبيل المبالغة القول بأن القضية الفلسطينية انتصرت، بالرغم من الحزن والألم الذي يعتصر القلوب عند مشاهدة الأطفال والنساء والدمار الذي تتعرض له غزة وأهلها. ولعل الخطر الأكبر الذي يواجه القضية الفلسطينية هو تهجير السكان الفلسطينيين من قطاع غزة والضفة الغربية، وهو أمنية شريرة تخطط لها إسرائيل منذ فترة طويلة وليس بعد هجوم 7 أكتوبر، ولكن تحقيق هذه الأمنية الإسرائيلية لا يبدو ممكناً لأسباب سأحاول الحديث عنها في خاطرة قادمة.

قد لا يستطيع أحد أن يتكهن الآن كيف ستنتهي الحرب على غزة، وربما يجد السياسيون المخضرمون صيغة يستطيع بها كل طرف أن يدعي أنه حقق النصر، ولكن العالم أصبح الآن أكثر إدراكاً أنه بدون معالجة القضية الفلسطينية، وبدون حصول الشعب الفلسطيني على دولة مستقلة، وبدون حل عادل لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين، فلن يكون هناك استقرار في الشرق الأوسط، وربما في العالم بأسره، وسوف يستمر الصراع فترة أطول، وسوف تأتي جولة أخرى من العنف والدمار بعد سنوات لا يعلم عددها سوى الله، وقد تكون معركة أكثر دموية وأكثر حسماً، وربما يقترب العالم من حرب أوسع مما يرغب فيه أو يستطيع تفاديه.